# الباب الأول

## تطور الآداب واللغة في مصر
## الآداب بمصر قبيل الفتح الإسلامي

اضمحلت مدرسة الإسكندرية في عصر الرومان؛ لفساد الحكومة بمصر، وللاضطهاد الذي لحقها من الرومانيين لا سيما بعد أن انتشرت الديانة المسيحية في البلاد، ثم لظهور مدارس أخرى في سوريا وروما وغيرهما مما جعل رجال العلم يهربون من الظلم الذي لحق كل المصريين؛ فخسرت مدرسة الإسكندرية بعض عناصرها الأساسية. ثم إن كثرة الجدل بين المسيحيين والوثنيين جعل كل فريق ينتصر لدينه ويعمل على رفع شأنه، فقد هال المدرسة الوثنية ما رأته من سرعة انتشار الدين المسيحي في مصر، فجدد ذلك روح النشاط عندها، فكانت خزائن الوثنيين بالإسكندرية في ذلك الوقت تحوي نسخًا من مؤلفات اليونانيين والمصريين، ومع ذلك سعوا إلى تضخيم عدد كتبهم بالنسخ والتأليف، فخصص قسم من النساخ لكتابة ما يمليه عليهم المؤلفون، ونسخ فريق آخر ما أمكن العثور عليه من كتب القدماء[1].

ولكن لم تدم هذه الحال طويلًا؛ إذ ظل الدين المسيحي والوثني يكيد كلٌّ لصاحبه، فهدم معابده ومدارسه وحرق كتبه وعبث بها حتى إذا كان عام إحدى وتسعين وثلاثمائة للميلاد، انقض المسيحيون بقيادة ثيوفيليس على السرابيوم حيث جامعة الإسكندرية ومكتبتها، فحطموا كل شيء في طريقهم؛

(١) تاريخ الأمة القبطية (طبعة مصر سنة ١٩٠٠) ص٥٨ وما بعدها.

لأنهم كانوا يرون أن المدرسة وما بها من كتب مظهر من مظاهر الوثنية، فأداهم تعصبهم الديني إلى هدم المدرسة والعبث بكتبها.

واتجهت مدرسة الإسكندرية إلى اتجاه آخر؛ أي إلى العلوم العقلية، فكانت الإسكندرية خير ميدان للأبحاث الفلسفية والدينية فتأثرت الفلسفة بالدين والدين بالفلسفة، واضطر رجال الدين المسيحي إلى أن يستعينوا بالفلسفة والمنطق في جدالهم الطائفي وجدالهم مع الوثنين، كما اختلطت الديانة اليهودية بالتعاليم اليونانية؛ فأدى ذلك المزج إلى ظهور نوع جديد من الفلسفة ازداد بانتشار المسيحية، فاستخرجوا العقائد الدينية والنظم الفلسفية التي بلغت الذروة في مذاهب الغنوسطية والأفلاطونية الحديثة ويهودية فيلون(١).

وسرعان ما انتشرت تعاليم مدرسة الإسكندرية الحديثة ورحل علماؤها إلى أقطار الإمبراطورية الرومانية يدعون إلى مبادئها، كما هاجر إلى الإسكندرية عدد من المسيحيين الذين شغفوا بما فيها من دروس الفلسفة؛ إذ كانت الإسكندرية أكبر موطن للفلاسفة والمفكرين(٢).

ومصر وإن كان زمامها بيد الرومان؛ فإنا نجد لغة العلم والمتعلمين بها هي اللغة اليونانية التي استطاعت أن تحيا وتحتفظ لنفسها بالمكانة الأولى في مصر، وسارت جنبًا إلى جنب بجوار اللغة المصرية؛ بل نرى اللغة اليونانية تؤثر في اللغة المصرية تأثيرًا قويًّا يظهر في استعمال المصريين للحروف اليونانية والألفاظ اليونانية الكثيرة التي نجدها في اللغة القبطية.

---

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين، ص١٥١، (الطبعة الأولى).

(٥) Milne : A Hisstory of Egypt under Roman. (London. ١٩١٣) P.١٥

كذلك كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية بمصر[١]، وتقول مدام بوتشر: إن «الوالي الروماني كان يصدر نشرات للأهالي يصف فيها حكمه للبلاد، وهذه النشرات كانت باليونانية، كما كان الولاة الرومانيون يفخمون أنفسهم ويعظمونها بأن يضيفوا لقبًا يونانيًّا إلى أسمائهم[٢]، وهذا دليلٌ واضحٌ على أن اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية لم تنتشر بين المصريين في حين أن الآداب اليونانية واللغة اليونانية كانت قوية منتشرة بين المثقفين في البلاد، حتى اضطر الوالي الروماني إلى أن يصطنع كتَّابًا يحذقون اليونانية. وكان لبعض هؤلاء الكتاب مؤلفات باليونانية أمثال لوسيانيوس صاحب «محاورات الموتى»[٣]، كما كان بمصر شعراء ينشدون أشعارهم باليونانية، بل نراهم قد حاولوا السير في أشعارهم على نهج شعراء اليونان؛ فمنهم من حَاكى هوميروس وقال شعرًا على نمط الإلياذة، كما وضع إخيلوس تاتيوس -وهو من شعراء مصر في القرن الرابع الميلادي- عدة روايات خيالية ممتعة[٤]. ومن شعراء مصر في القرن الخامس الميلادي سيروس الإخميمي فقد شغف بالشعر وإنشاده، وكان صديقًا لايدوشيا زوج الإمبراطور ثيودوسيس الثاني، وتقلب في مناصب الدولة إلى أن صار قائد الجيش المصري، ولكنه اعتزل العمل ورغب في خدمة الدين المسيحي، فعين أسقفًا لإحدى الكنائس[٥]. وفي القرن

---

(١) Quatremere: Recherches sur la Langue et La Litterature de L Egypt paris ١٨٠٨ p.٥.

(٢) Butcher: the story of the church of Egypt «London ١٨٩٧» v.i. p.٣٥٦.

(٣) تاريخ الأمة القبطية: ص٥٨.

(٤) تاريخ الأمة القبطية: ص٢٣٤.

(٥) بيوتشر: ج٢، ص٩.

السادس الميلادي ظهر شاعر مصري من طيبة يدعى كريستودورس ولا تزال قصائده مسطورة في الكتاب الخامس من منتخبات الأشعار اليونانية. ويقال: إن هذا الشاعر وجد صعوبات جمة في نسخ أشعاره وترتيبها[١].

وممن اشتهر بالعلوم بمصر في ذلك الوقت عالم مصري اسمه ديسقوريدس وضع كتابًا في علم النبات وحلاه بكثير من الصور والنقوش، ولا يزال هذا الكتاب محفوظًا في مكتبة فيينا إلى الآن[٢].

بجانب هذه الآداب اليونانية كان بمصر آداب سريانية؛ إذ كان لنهضة الفرس في القرن السابع الميلادي وغزوهم لبلاد الشام أثر في ازدياد ذخيرة الإسكندرية وزيادة الآداب السريانية بها؛ فقد هاجر كثير من علماء السريان إلى مصر حيث نشروا آدابهم، ونقلوا إلى مصر كتبهم وتعاليمهم، وكان نظام الرهبنة قائمًا في مصر، وفي كل دير مكتبته وتلاميذه يعكفون على الدرس والتحصيل، فنقلت هذه الآداب السريانية إلى الأديرة لا سيما في دير السريان بوادي النطرون، كما كانت تدرس علوم الطب في القرنين السادس والسابع باللغة السريانية. وفي القرن السابع قام بولس أسقف بلا بترجمة نسخة الترجمة السبعينية من الكتاب المقدس إلى اللغة السريانية، وظلت هذه الترجمة في وادي النطرون حوالي ألف سنة، وهي الآن بالمتحف البريطاني[٣]. وكتب اهرن القس Aaron مقالاته الطبية التي يجمعها كتاب «كناش في الطب» باللغة السريانية؛ وترجم هذا الكتاب إلى العربية ماسرجويه بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز،

(١) بيوتشر: ج٢، ص٧٩.

(٢) بيوتشر: ج٢، ص٥.

(٣) تاريخ الأمة القبطية، طبع مصر سنة ١٩٠٠، ص٦٧.

فكان هذا الكتاب من المراجع الهامة للعرب في علم الطب. كذلك كانت تدرس الآداب السريانية بالإسكندرية والأديرة المختلفة التي امتلأت بها صحارى مصر. ويحدثنا المؤرخون عن الطبيب سرجيوس من رجال القرن السادس الميلادي، فقد أتقن العلوم والآداب السريانية كغيره من الأطباء(١).

لم تقتصر الآداب في مصر قبل الفتح على الآداب اليونانية والسريانية فحسب؛ بل نجد رجال الدين المسيحي بمصر يكتبون مقالاتهم الدينية باللغة القبطية التي صارت لغة الدين في مصر، وبطل استعمال اللغة اليونانية في الكنائس والمجتمعات على نحو ما سنذكر بعد. فقد ارتقت اللغة القبطية وصار مسيحيو مصر يصلون في كنائسهم بلغتهم، وقام جماعة من الرهبان بترجمة ونسخ كثير من الكتب والأسفار؛ منها ترجمة العهد الجديد إلى الثلاث اللهجات القبطية، وترجموا جميع الطقوس الدينية، كما كتبوا تراجم البطاركة والشهداء وألفوا كتبًا في التاريخ العام(٢). ولم يبق لنا من هذا كله إلا النزر واليسير. ولعل أهم هذه الكتب كتاب تاريخ وضعه يوحنا النيقوسي كتبه في أواخر القرن السابع الميلادي، فقد شاهد هذا الرجل الفتح العربي وكتب عنه، ويعتبر كتابه من أقوم المصادر التاريخية عن دخول العرب مصر. ولم يبق من هذا الكتاب إلا الترجمة الحبشية لجزء منه.

ومع ذلك كله لم تكن الحركة الأدبية القبطية على درجة كبيرة من الرقي. يقول الأستاذ بتلر: «لا يستطيع الأقباط أن يفخروا بشعراء مجيدين أو مؤرخين

---

(١) Butler: the Arab conquest of egpt p. ٩٣.

(٢) تاريخ الأمة القبطية لبيوتشر: ج٢، ص١٧.

معروفين أو فلاسفة أو أحد من رجال العلم، فجل آدابهم دينية لقلة ما كان لديهم من بيان وعلم؛ مما سبب إهمال لغتهم وعدم انتشارها في العالم، مع أنه لا تكاد توجد لغة أقدم من لغتهم أو أغرب منها أو ذات تاريخ أعجب من تاريخها»[١].

وهذا صحيح إلى حد ما؛ إذ إن المصريين عنوا بالدين فقط، ويخيل إليَّ أن العقيدة الدينية بمصر تتمشى في عروق المصريين منذ القدم، فآثار قدماء المصريين التي نراها الآن ما هي إلا مظهر من مظاهر دياناتهم المختلفة، فهم لم يبنوا الأهرام والمعابد، ولم يضعوا الحلي والأواني في القبور، ولم ينقشوا القبور الزاهية؛ بل هم لم يتقنوا السحر والطب والتنجيم وغيرها من العلوم إلا من أجل الدين. فمدنية قدماء المصريين مدنية فنية؛ ولكنها دينية قبل كل شيء، بخلاف الحضارة اليونانية القديمة التي كانت أدبية فلسفية. وفي مصر التقت الحضارتان فامتزجتا وظل المصريون يميلون إلى الدين وما يتعلق به وتركوا العلوم الفلسفية إلى من وفد على بلادهم، ثم إن المذهب اليعقوبي لم يواجه من المعضلات الدينية ما واجهه المذهب النسطوري في أسيا مثلًا، لهذا نرى النساطرة ينقلون الكتب الفلسفية والعلمية والدينية إلى السريانية، ولا نجد هذه الترجمة عند اليعاقبة المصريين، فلا غرابة إذا وجدنا المدرسة الفلسفية الوثنية بالإسكندرية تتقهقر ويزول أمرها في القرن الخامس الميلادي في حين قويت المدرسة اللاهوتية.

فتح العربُ مصر سنة ٢٠ هجرية «على خلاف التاريخ» فضعفت الآداب

(١) Butler: the ancient Coptic churches of Egypt v.٢.p٢٤٧.

اليونانية واللغة اليونانية، وظلت الآداب القبطية واللغة القبطية حتى إذا كان القرن العاشر الميلادي -أي الرابع الهجري- نجد الأسقف سويرس بن المقفع -وكان من رجال الدين في هذا القرن- يقول: «استعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوة المسيحيين وسألتهم نقل ما وجدناه منها (أي من سير الآباء المسيحيين) بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم»(١). ولكن لم تمح اللغة القبطية واللغة اليونانية دفعة واحدة؛ بل قلَّ استعمالهما وحلت محلهما اللغة العربية والآداب العربية -ويدلنا على أن هذه الآداب اليونانية والقبطية ظلت إلى ما بعد الفتح ما حدثنا به ابن النديم في كلامه عن خالد بن يزيد بن معاوية، قال: «وأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونانية ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة واللسان من اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة»(٢). كما كان في كل كنيسة كتاب باللغة القبطية في حياة الآباء يقرؤه القسس كل صباح، ولا يسمح لأي إنسان أن يقتنيه، وقد ترجم إلى العربية أمثال هذه الكتب، وكذلك القصص التي في آخرها(٣).

استطاعت اللغة العربية والآداب العربية أن تغزو مصر كما غزاها العربُ، وأن تستقر بمصر كما استقر بها العرب، واضطر المصريون إلى أن يحذقوا العربية، فلم يمض إلا وقت يسير حتى رأينا الآباء البطاركة يؤلفون كتبهم

(١) سير الآباء البطاركة لابن المقفع، طبع بيروت، ص٦.

(٢) الفهرست لابن النديم، ص٣٣٨، (طبع المطبعة الرحمانية).

(٣) Butler: the ancient Coptic churches of Egypt .p ٢٥٩.

بالعربية مثل ابن البطريق رئيس الكنيسة في الإسكندرية في القرن العاشر الميلادي صاحب «نظم الجوهر في التاريخ العام»، وسويرس بن المقفع صاحب «سير الآباء البطاركة» وغيرهما.

أمَّا مدرسة اللاهوت بالإسكندرية مبعث الآداب والعلوم في العالم فظلت تخرج العلماء، وإليها كان يفد العلماء بعد الفتح؛ ففي سنة ثمانين وستمائة ميلادية رحل إليها يعقوب الرهاوي لإتمام دراسة الآداب اليونانية والسريانية. ويقول بتلر: «ومن الثابت أن الإسكندرية كانت مركز الثقافة والآداب في العالم في هذا الوقت «أي زمن الفتح». ومع أن أكثر العلوم بها كانت دينية نجد اتجاهًا وعناية بالآداب القديمة؛ إذ كتبت موضوعات كثيرة عن الأخلاق المسيحية المبنية على الأفلاطونية الحديثة[١]. ولكن أصاب مدرسة الإسكندرية شيءٌ من الضعف منذ أوائل أيام العرب، وفاقتها مدارس أنطاكية وحران وجند يسابور وغيرها مع استمرار دراسة الآداب القديمة والآداب الدينية بأديرة مصر ومدرسة الإسكندرية، ولست أدري كيف يقول ابن أبي أصيبعة: «وظلت مدرسة الإسكندرية مركز التدريس في الشرق إلى أواخر القرن الأول حتى نقله عمر بن عبد العزيز إلى مدرسة أنطاكية»[٢].

فإنا نعلم أن مدرسة الإسكندرية ظلت بعد الفتح العربي طويلًا واتصل بها المسلمون في العهد الأموي فاصطفن الإسكندراني يترجم كتابًا لخالد بن يزيد، وابن أبحر الطبيب الإسكندري يعتمد عليه عمر بن عبد العزيز في صناعة

(١) Butler: the Arab conquest of egpt p. ٩٦.

(٢) عيون الأنباء: ج١، ص١١٦.

الطب، وعندما مرضت جارية للرشيد أرسل في طلب طبيب مصري هو بليطان بطريق الإسكندرية، وفي أيام أحمد بن طولون نجد سعيد بن نوفل يطببه[١]، كما كان لمدرسة الإسكندرية أثر في العرب لا سيما في علم الطب الذي ظهر عند العرب مشبعًا بتعاليم الإسكندريين، فظلت هذه العوامل شديدة الأثر في ما أخرج في الطب من المؤلفات العربية. كما كانت مؤلفات بولس الايجيني Paul of Aeginae - وكان في الإسكندرية أيام الفتح العربي- مما يعتمد عليها طوال العصر العربي.

كذلك كانت مدرسة الإسكندرية النواة التي استمد منها العرب علم الكيمياء، أو كما يقول كتاب العرب علم الصنعة، فكل من تحدث عن هذا العلم يذكر مصر ومآثرها على من اشتغل به. ويكفي أن نذكر ما جاء في الفهرست: «قال ابن إسحاق: والكتب المؤلفة في هذا الشأن (أي الصنعة) أكثر وأعظم من أن تحصى؛ لأن المؤلفين لها تنحلوها عنهم. ولأهل مصر في هذا الأمر مصنفون وعلماء، وأصل الكلام في الصنعة من ثم أخذوها»[٢]. وظل هذا العلم بمصر طويلًا بعد الفتح وشغف به كثير من المسلمين. وقد رأينا كيف اعتمد خالد بن يزيد على بعض المصريين ليترجموا له كتب الصنعة، كما قيل: إنَّ ذا النون المصري كان له أثر في الصنعة، وأنه ألف كتاب الثقة في الصنعة[٣].

ولا ندري تمامًا مبلغ هذا القول من الصحة؛ فإن عثمان بن سويد الإخميمي وضع كتابًا سماه «صرف التوهم عن ذي النون المصري»[١]؛ ولكن الكتاب

(١) ضحى الإسلام، للأستاذ أحمد أمين: ج١، ص٢٦٢.
(٢) الفهرست لابن النديم: ص٥٠٧.
(٣) الفهرست لابن النديم: ص٥٠٤.

فُقد، ولا أعلم أكان هذا المؤلف وضع كتابه في الرد على من قال: إن ذا النون اشتغل بهذه العلوم أم لا.

ومع ذلك نقول: إن مدرسة الإسكندرية ضعف أمرها أيام العرب وقلت شهرتها، وأخذت الآداب اليونانية والقبطية تتقهقر. فالآداب بمصر قبل الفتح كانت قليلة مصطبغة بالصبغة الدينية بحكم ذلك النزاع الطائفي الذي كان بين المسيحيين وسيطرت المذاهب الطائفية على عقول الناس وتفكيرهم؛ بل تحكمت في أخلاقهم وسلوكهم، وهذا الانقسام في الرأي والعقيدة كان من العوامل التي ساعدت العرب على فتح مصر.

**مكتبة الإسكندرية:**

ذكر بعض المؤرخين أمثال عبد اللطيف البغدادي في كتاب «الإفادة والاعتبار»[٢]، والقفطي في «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»، وابن العبري، وتبعهم المرحوم جورجي زيدان: أن عمرو بن العاص قد أحرق مكتبة الإسكندرية بأمر الخليفة عمر بن الخطاب، وقد ناقش ذلك كثير من العلماء وارتابوا في هذا الأمر، ومن يرجع إلى كتاب الأستاذ «بتلر» الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ «محمد فريد أبو حديد» يجد فصلًا خاصًّا بهذا الموضوع؛ وفيه نفى بتلر نسبة إحراق مكتبة الإسكندرية لعمرو بن العاص، وأظن أنه لا داعي لنقل ما كتبه المؤرخون أمثال جيبون وغوستاف لوبون وغيرهما؛ إذ كادوا يجمعون على أن هذه خرافة.

---

(١) الفهرست لابن النديم: ص٥٠٥.

(٢) الإفادة والاعتبار: ص٢٨.

## قبائل العرب بمصر

اتصلت مصر ببلاد العرب قبل الإسلام اتصالًا تجاريًّا[١]، «إذ نقل العرب غلات بلادهم إلى البلاد الأخرى، وكانت القوافل أول ما تنزل في البلاد الرومانية تنزل في أيلة، وهي المعروفة اليوم بالعقبة»[٢]. والمؤرخون يحدثوننا عن كثير من العرب حضروا إلى مصر قبل الإسلام، ويذكرون منهم عمرو بن العاص -وكذلك سافر المصريون إلى البلاد العربية إما لأسباب تجارية أو أسباب علمية كالذي قيل: إن التاجر المصري قزمان الذي أولع بالسياحة سافر في القرن السادس الميلادي إلى بلاد العرب، ومنها إلى بلاد الهند، ووضع مؤلفًا لأحوال هذه البلاد التي زارها[٣].

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم، أرسل من قبله حاطب بن أبي بلتعة رسولًا إلى المقوقس عظيم القبط في مصر يدعوه إلى الإسلام، فأكرم المقوقس الرسول وأرسل معه هدية إلى النبي عليه الصلاة والسلام تقبَّلها شاكرًا، وأوصى بالقبط خيرًا، وروى عنه أنه قال: **«استوصوا بالقبط خيرًا؛ فإن لهم ذمة ورحمًا»**. قال ابن كثير: «والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام؛ أمه هاجر القبطية، وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبي عليه الصلاة والسلام، وأخوال إبراهيم ابن رسول الله، وأمه مارية القبطية من سناكورة انصنا»[٤]. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: «أهل مصر أكرم

---

(١) محاضرات الأستاذ نللينو في تاريخ العرب الجنوبية.

(٢) فجر الإسلام، الطبعة الأولى، ص١٦.

(٣) Butler: the Arab conquest A egpt p. ١٠٢.

(٤) النجوم الزاهرة: ج١، ص٢٩، (طبعة دار الكتب المصرية).

الأعاجم كلها، وأسمحهم يدًا، وأفضلهم عنصرًا، وأقربهم رحمًا بالعرب عامة، وبقريش خاصة»[١].

وكان بين الأقباط من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم كجبر بن عبد الله القبطي. وروى السيوطي عن سعيد بن عفير أنه قال: «والقبط تفخر بأن منهم من صحب النبي صلى الله عليه وسلم»[٢].

وجاء ذكر مصر في القرآن الكريم مرارًا صراحة أو كناية في أكثر من عشرين موضعا، ولم يذكر غير مصر من البلدان بمثل هذا العدد، فلا غرو إذن أن نرى العرب يعرفون شيئًا عن مصر، فراحوا يتحدثون عنها، ويخترعون الأحاديث الكثيرة عن عجائبها، كما طمع العرب في ثروة مصر؛ لهذا بعد أن تمَّ لهم فتح الشام، جاء عمرو بن العاص إلى مصر ومعه عرب من قبائل مختلفة، يقال: إن أكثرهم من عك ولخم، ويقال أيضًا: إن عددهم لم يزد عن أربعة آلاف نفس، ثم أتبعه الزبير بن العوام بمدد قُدِّر باثني عشر ألفًا، فلما تم لهم فتح مصر وبنى مسجد الفسطاط، أمر عمرو جنوده أن يختطوا حول المسجد الجامع كل بحسب قبيلته؛ فمن القبائل التي اختطت بالفسطاط وأقامت بها: مهرة وتجيب ولخم وغسان وغافق[٣]، ومن بني غافق بطن يعرفون بالقرافة سكنوا سفح المقطم، ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا في البلاد المصرية، وصار مكانهم مقبرة المسلمين فسميت المقبرة في مصر بالقرافة نسبة إلى هؤلاء القوم[٤].

---

(١) شرحه.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي: ج١، ص١٠٩.

(٣) خطط المقريزي: ج٢، ص٧٦ وما بعدها.

(٤) ابن خلكان: ج١، ص٣٣٨.

وكان مع عمرو جماعة العتقاء، وهم جماع من القبائل عرفوا بالصعاليك كانوا يقطعون الطريق أيام النبي صلى الله عليه وسلم فبعث في طلبهم وأتى بهم أسرى، فأعتقهم، وكان بينهم كثير من طوائف الأزدوفهم(١).

كذلك شهد فتح مصر واختط بالفسطاط قوم من الفرس هم أبناء جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام، وأسلموا ورغبوا في الجهاد، فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر(٢)، كما كان في جيش الفتح جماعة من الشام عرفوا في مصر بالحمراء لنزول الروم بينهم؛ ولكنهم عرب من بلى «قضاعة» وفهم وعدوان وبعض الأزد، وكانوا يسكنون قيسارية وما حولها، ورغبوا في الإسلام قبل واقعة اليرموك وساروا مع عمرو إلى مصر، وسموا بالحمراء لأن العرب اعتادوا أن يسموا الموالي من الروم بهذا الاسم(٣).

واشترك في الفتح أيضًا عدد من قبائل مختلفة: من قريش والأنصار وخزاعة ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وليث عرفوا في مصر باسم أهل الراية، ونسبت الخطة إليهم؛ لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد من الديوان(٤).

أمَّا همدان فلم يقبلوا أن يسكنوا الفسطاط، واختاروا الجيزة لهم مقرًّا، وحاول عمرو أن يرجعهم إلى الفسطاط فلم يستطع، فاضطر إلى أن يخاطب الخليفة في شأنهم، فكتب الخليفة إليه: «كيف رضيت أن تفرق أصحابك ولم

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٨٨.
(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٧٨.
(٣) خطط المقريزي: ج٢، ص٧٩.
(٤) خطط المقريزي: ج٢، ص٧٦.

يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدري ما يفاجئهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره، فاجمعهم إليك، فإن أبوا إليك وأعجبهم موضعهم، فابن عليه من فيء المسلمين حصنًا». فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن بالجيزة، وسكن مع همدان نافع وذو أصبح وطائفة من الحجر، وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع(١).

وبعد أن تمَّ فتح مصر رأينا الخليفة عمر يكتب إلى عامل الشام أن يسيِّر ثلث من بالشام من قضاعة إلى مصر، فنظر الوالي فاذا «بلى» تعادل ثلث قضاعة فسيرهم إليها، فانتشروا في البلاد ولا سيما حول أخميم وما يليها، وتفرقت بلى بأرض مصر، ثم اتفقت هي وجهينة فصار لها من الشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب (بالقرب من القصير)(٢).

وكان عمر بن الخطاب يبعث كل عام غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية، وقسم عمرو بن العاص من معه؛ فكان يرسل ربع الناس يقيمون ستة أشهر في رباط الإسكندرية، والربع في السواحل والنصف يقيمون معه. ولم يختلط العرب بالإسكندرية كما اختطوا في الفسطاط، بل كان بها أخائذ؛ من أخذ منزلًا نزل فيه هو وبنو أبيه(٣)، فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الإسكندرية ربع الناس، وكانت لخم من في ناحية الإسكندرية.

أخذ العرب يفدون على مصر أفواجًا حتى غصت بهم البلاد، وكان بين

(١) حسن المحاضرة للسيوطي: ج١، ص٨١.

(٢) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣٧، ٣٨.

(٣) خطط المقريزي: ج١، ص٢٦٩.

القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل، فلما كثرت الأمداد في زمان عثمان بن عفان وما بعد، وكثر الناس وسع كل قوم لبني أبيهم حتى كثر البنيان والتأم[١]. ولما ولي معاوية بن أبي سفيان زياد بن أبيه على البصرة، غرب جماعة من الأزد إلى مصر عام ثلاث وخمسين هجرية[٢]، فنزل منهم مائة وثلاثين. كما كتب معاوية إلى علقمة القطيفي -عامل الإسكندرية-: «إني قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة» فكان في الإسكندرية سبعة وعشرون ألفًا[٣]. كما كان بمصر في خلافة معاوية أربعون ألفًا[٤].

وفي إمارة الوليد بن رفاعة على مصر عام تسع ومائة[٥] نزل بنو سليم - (وهم من قيس) ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من عدوان الذين أنزلهم عبد الله بن الحبحاب والي الخراج في خلافة هشام بن عبد الملك- وكان عدد بني سليم ثلاثة آلاف رجل، فأنزلهم الخوف الشرقي وأمرهم بالزرع فاشتروا إبلًا، وكانوا يحملون الطعام إلى القلزم فأثروا، ولما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فأقاموا سنة فأتاهم ألف وخمسمائة بيت من قيس، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد صار بمصر ثلاثة آلاف أهل بيت، ثم زيدوا إلى خمسة آلاف ومائتين، ولكثرة القيسية بمصر وتجمعهم في الخوف وثرائهم العظيم كانوا مصدر فتن وقلاقل، وكثيرًا ما

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم: ص١٢٨.
(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٧٨.
(٣) حسن المحاضرة: ج١، ص٩٨.
(٤) خطط المقريزي: ج١، ص١٥١.
(٥) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣١.

حاربوا الولاة. وكان يجاورهم في الحوف جماعة من صلاح وطارق وهم من جذام، ولذلك قامت الحروب الكثيرة بين القيسية واليمنية؛ شأنها في ذلك شأن هاتين الطائفتين في كل الأقطار الإسلامية.

وسكن بنو عقبة -وهم من جذام أيضًا- ما بين أيلة وحوف مصر[١] كما ذهب قوم من جذام ولخم إلى الإسكندرية[٢]، وكانت لهم هناك أيام معلومة ووقائع مشهورة ولا سيما في فتنة ابن الجروي. وكان كل أمير يتولى مصر يأتي إليها ومعه عدد من الجند العرب كي يقوى بهم ويقمع بهم الفتن التي تنجم في البلاد، فقد قيل: إن حوثرة الباهلي سار إلى مصر في آلاف من العرب[٣]، ولا أدري تمامًا من أي القبائل كان هؤلاء القوم، وأكبر الظن أنهم من القيسية عشيرة الوالي.

وبصعيد مصر أولاد الكنز، أصلهم من ربيعة، وكانوا ينزلون اليمامة فقدموا أرض مصر في خلافة المتوكل عام نيف وأربعين ومائتين في عدد كثير، وانتشروا في البلاد، فنزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد وسكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها، وكان قبائل البجة تشن الغارات على القرى الشرقية في كل حين، وخربوا كثيرًا من أملاك الأهالي، فقام الربعيون في منعهم حتى كفوهم، ولم يلبثوا أن تزوجوا منهم وصارت لهم مرافق في بلاد البجة واستولوا على مناجم الذهب بها؛ فكثرت بذلك أموالهم[٤]. وانتقلت بطون من قريش إلى

(١) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣١.
(٢) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣٥.
(٣) خطط المقريزي: ج١، ص٢١١.
(٤) البيان والإعراب للمقريزي: ص٤٨.

الأشمونين، وكان بينهم بنو جعفر بن أبي طالب المعروف بالطيار، وبنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان وتحالفوا جميعًا وعاشوا سالمين، والجعافرة اليوم ينسبون إلى جعفر هذا.

ويقول المقريزي: «وجهينة أكثر عرب مصر»[١]، وهؤلاء كانوا يسكنون حول أسيوط وما بعدها، ووقع بينهم وبين بطون بلى من الخطوب ما خطب أدى إلى دوام الفتنة بينهما. وفي الفيوم نزل بنو كلاب[٢] ومن منية غمر إلى زفيتا سكن سعود جذام، وأكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها ولهم مزارع وفسادهم كثير[٣].

وانتقلت طوائف من فزارة إلى الغربية وقليوب[٤]. وفي الدقهلية سكن عرب ينتسبون إلى قريش[٥]. وسكن حول تنيس ودمياط قوم ينتسبون إلى نصر بن معاوية، وهم من هوازن، وكان لهم شوكة شديدة بأرض مصر، وكثروا حتى ملأوا أسفل الأرض وغلبوا عليها حتى قويت عليهم قبيلة من البربر تعرف بلواتة، تزعم أنها من قيس فأجلت بني نصر وأسكنتها الجدار، فصاروا أهل قرى في مكان عرف بهم وسط النيل وهي جزيرة بني نصر[٦]. ثم تعاقب على مصر طوائف من العرب في العصور التي تلت عصرنا الذي نؤرخه، ولعل

(١) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣٨.
(٢) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣٦.
(٣) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣١.
(٤) البيان والإعراب للمقريزي: ص٦٢.
(٥) البيان والإعراب للمقريزي: ص٦٢.
(٦) خطط المقريزي: ج١، ص٣٦٥.

أكثرها كان في القرن الخامس الهجري؛ إذ أرسل الوزير الناصر اليازوري عام اثنين وأربعين وأربعمائة، فاستدعي سنبس من فلسطين وأقطعهم البحيرة التي كانت منازل بني قرة؛ فعظم أمرهم أيام الفاطميين، ولكنهم تفرقوا في الغربية وذلوا بعد واقعة ديروط عام إحدى وخمسين وستمائة أيام عز الدين التركماني، وكان يجاورهم فرقة من كنانة بن خزيمة وفرقة من بني عدي بن كعب رهط عمر بن الخطاب، ونزل العمريون في البرلس، والكنانيون بقرب دمياط.

مما تقدم نستطيع أن نقول: إن أكثر عرب مصر من اليمنيين وقد اختطوا دورهم في الفسطاط وغيرها، ورابط بعضهم في المدن الكبيرة التي هي ثغور مصر والتي كان يخشى عليها من مهاجمة الأعداء. وكان بمصر عدة من الثغور المعدة للرباط في سبيل الله تعالى، وهي: البرلس ورشيد والإسكندرية وذات الحمام والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتنيس والأشتوم والفرما والواردة والعريش وأسوان وقوص والواحات، فيغزى من هذه الثغور الروم والفرنج والبربر والنوبة والحبشة والسودان[١]. كما كان لبعض العرب إقطاعات بمصر؛ كالذي قيل: إن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر منية الأصبغ، فحاز منها لنفسه ألف فدان، فلم تزل له حتى مات، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان[٢] فسميت باسمه.

وكانت للعرب أيام خاصة في الربيع ينتقلون فيها من مرابطهم يجوسون خلال قرى الريف؛ فقد جاء في خطبة لعمرو بن العاص: «فحيَّ لكم على بركة

(١) خطط المقريزي: ج١، ص٤٣.

(٢) خطط المقريزي: ج١، ص١٥٥.

الله إلى ريفكم، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها؛ فإنها جنتكم من عدوكم، وبها مغانمكم وأنفالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرًا ...». إلى أن قال: «فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس العود، وسخن العمود، وكثر الذباب، وحمض، اللبن، وانقطع الورد من الشجر، فحيَّ إلى فسطاطكم على بركة الله»[١].

فإن صحت نسبة هذا القول إلى عمرو، فإنا نتبين أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم، ويتصلون بالمصريين في قراهم ومدنهم، ويتحادثون إليهم ويتساومون، فمن المصريين من أعجب بالعرب ودينهم فاعتنقه، ومنهم من اضطر إلى اعتناقه اضطرارًا لعجزه عن أداء الجزية، أو لأغراض أخرى. وكان عمرو يعين القرى التي تذهب إليها كل قبيلة، فكان يكتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا[٢].

إذن في ابتداء الفتح كانت إقامة العرب في الفسطاط والثغور، ولم يكن لهم مقام بالقرى، وكان القبط متمكنين في بلادهم لا يتدخل في شئونهم عربي. على أنَّ المسلمين في المائة الثانية انتشروا في قرى مصر ونواحيها، وما برح القبط يثورون على المسلمين، إلى أن جاء المأمون سنة سبع عشرة ومائتين فأسرف في تأديبهم حتى أخضعهم له، وغلب العرب على أماكن المصريين في القرى، وحولوا بعض الكنائس إلى مساجد، فاضطر المصريون إلى أن يتعلموا لغة

(١) النجوم الزاهرة: ج١، ص٧٣.
(٢) الخطط: ج٤، ص٢٨.

الفاتحين، وإلى أن يعتنق أكثرهم دين الإسلام.

ولما كثر عدد العرب بمصر طمعوا في ازدياد ثروتهم، فعمدوا إلى الزراعة والتجارة، حتى إذا كان أيام المعتصم أمر بإسقاط جميع العرب من الديوان، فاضطر عرب مصر إلى أن يجتهدوا في جمع المال، وصاروا كالمصريين سواء بسواء، وزاد اختلاط العرب بالمصريين وتزوج العرب من نساء مصريات، فلم يمض إلا زمن قليل حتى رأينا في مصر شعبًا إسلاميًّا عربيًّا(١)، وقد دفعهم تعصبهم للإسلام إلى الثورة لبناء كنيسة، فقد قيل: إنه في سنة ست وعشرين وثلاثمائة هدمت قطعة من كنيسة أبي شنوده، فبذل النصارى للإخشيد مالًا ليطلق عمارتها، فلم يقبل إلا بعد استفتاء الفقهاء، فأفتى أحدهم -وهو محمد بن علي- بأن لهم أن يرموها ويعمروها، وعُرف ذلك عنه؛ فحملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله، فاستتر وندم على فتياه(٢).

### ١- الصراع بين اللغات: اليونانية، القبطية، العربية:

انتشرت اللغة اليونانية في مصر منذ أيام البطالسة؛ فكانت الدروس تلقى بها في المدارس(٣)؛ ولكن الشعب المصري كان منصرفًا بعض الشيء عن هذه الدروس اليونانية، وأحجم كثير من المصريين لا سيما سكان الوجه القبلي عن تلقي هذه اللغة الأجنبية، فلم تنتشر اليونانية في الصعيد أو في القرى المصرية بمقدار انتشارها في الوجه البحري أو المدن الكبرى. وفي عهد الرومان

(١) Lane poole: Hisstory of Egypt in the Middle Ages p. ١٥.

(٢) المغرب لابن سعيد: ص٣٢.

(٣) Quatremere: Recherches sur la Langue et La Litterature de L Egypt paris p.٥.

استمرت اللغة اليونانية اللغة الرسمية في مصر. وقد ذكرنا كيف كان الوالي الروماني يصدر نشرات للمصريين باللغة اليونانية يصف فيها حكمه للبلاد، وكيف كان الولاة يفخمون ويعظمون بلقب يوناني يضاف إلى أسمائهم(١)، فكانت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة والحكم، بينما احتفظت اللغة المصرية بمنزلتها بين الشعب فلم تتغلب اليونانية عليها حتى أن القس أورجانوس Origen قال: «إذا أراد يوناني أن يعلم المصريين شيئًا من القانون، فخير له أن يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع أن يتفاهم معهم، أما إذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه»، مما يدل على أن اللغة اليونانية لم تكن منتشرة بين جميع المصريين. فبينما كان القديس بولس يجيد اللغتين اليونانية والمصرية كان القديس أنطونيوس لا يعرف غير اللغة المصرية وبها كتب كل أبحاثه الدينية. ولما وفد افرام (فم الذهب) إلى مصر لزيارة الأنبا بشوا Anba Bishoi لم يستطع الرجلان أن يتفاهما إلا بمساعدة مترجم؛ لأن كلًّا منهما لم يعرف إلا لغة بلاده(٢).

ونجد اللغتين اليونانية والمصرية منقوشتين على بعض الأحجار ومكتوبتين على أوراق البردى، ويرجع تاريخ هذه الأحجار وتلك الأوراق إلى العصر الروماني مما يثبت أن اللغة اليونانية كانت تسير مع اللغة المصرية. ومما يؤيد ذلك أيضًا أن التعاليم الدينية التي كانت تلقى في الكنائس أو تنشر بين الناس كانت تقرأ أولًا باللغة اليونانية ثم تشرح باللغة المصرية؛ وأهل الصعيد أنفسهم الذين كانوا بعيدين عن مصدر اللغة اليونانية كانوا يرتلون صلواتهم باللغة

(١) تاريخ الأمة القبطية: ص١٢٤.

(٢) Butler: the ancient Coptic churches of Egypt v.٢.p٢٥١.

اليونانية بينما كانوا يتحدثون المصرية.

من ذلك كله نستطيع أن نقول: إن اللغة اليونانية كان لها أثرها في مصر، ونلمح أثر هذه اللغة في اللغة المصرية نفسها التي تعرف باللغة القبطية، فالحروف القبطية هي نفس الحروف اليونانية تقريبًا، ونجد كثيرًا من الألفاظ اليونانية دخيلة في اللغة القبطية.

أمَّا اللغة القبطية فلم تكن لهجة واحدة، بل اختلفت لهجاتها باختلاف الأقاليم المصرية. نقل كاترمير عن اثناس بطريق قوص: «تعلم أن اللغة القبطية مقسومة إلى ثلاثة أقلام: منها القبطي المصري الذي هو الصعيدي، ومنها القبطي البحيري المعروف بالبحيرة، والقبطي الأشموني المستعمل ببلاد الأشمونين -كما تعلم- وإنما المستعمل الآن القبطي البحيري والقبطي الصعيدي، والأصل فيها لغة واحدة»(١).

نلمح من هذه الجملة أن اللهجة الصعيدية هي أقل اللهجات القبطية تأثرًا باللغة اليونانية؛ لبعدها عن مراكز اللغة اليونانية، وأنها أقرب اللهجات إلى اللغة المصرية القديمة حتى عبر عنها بالقبطي المصري، أما اللهجة البحيرية فهي لهجة الوجه البحري، وهي أكثر اللهجات تأثرًا باليونانية لقربها من بلاد اليونان ومن الإسكندرية حيث الجامعة ومقر الحكم، ولا ندري شيئًا عن اللهجة الأشمونية.

ولما شعر المصريون بالاضطهاد الديني اشتد كره المصريين لكل ما هو أجنبي، ونظروا إلى الأجانب نظرتهم إلى عنصر من عناصر الوثنية؛ فمنع

(١) Quatremere: p. ٢٠.

المصريون اللغة اليونانية من الكنائس واستبدلوها باللغة القبطية[١]، وكان ذلك في القرن السادس الميلادي، ولكن اللغة اليونانية ظلت مستعملة متداولة في الكنيسة الملكانية، أما الكنيسة اليعقوبية المصرية فقد أمرت بتحريم اللغة اليونانية، فأضعف ذلك من شأن اللغة اليونانية بعض الشيء.

وبينما كانت الكنيسة اليعقوبية في خصام عنيف مع الكنيسة الملكانية تغير نظام العالم السياسي فجأة، وأصاب مصر ما أصاب كثيرًا من البلدان الأخرى؛ فقد خرج العرب من بلادهم لغزو فارس والشام ومصر، فوقفت الطائفة اليعقوبية تساعد المسلمين وتؤازرهم ضد الرومان، وقد أراد المصريون بمساعدة العرب أن يتخلصوا من أعدائهم الرومانيين، وأن يمحوا من البلاد الكنيسة الرومانية، فهدم المصريون كنائس خصومهم، وحاولوا منع استعمال اللغة اليونانية بمصر؛ ولكنهم لم يبلغوا مرادهم.

شعر المصريون في أوائل الحكم العربي بشيء من الحرية التي طالما تمنوها وعملوا من أجلها، وظهرت هذه الحرية في استخدامهم في الأعمال الحكومية التي كانوا بعيدين عنها.

وهنا أرى أن أشير إلى موضوع تحدث عنه مؤرخو العرب القدماء والمحدثون، تلك هي مسألة نقل الدواوين من اللغات الأجنبية إلى العربية، فجميع من تحدثوا عن هذا الموضوع ذكروا أن الدواوين كانت تكتب في مصر باللغة القبطية وفي الشام باليونانية؛ من ذلك ما قاله الكندي: «حتى إذا كانت ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان، فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية،

(١) تاريخ الأمة القبطية: ج٢، ص٨٨.

وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية، وصرف عبد الله أشناس عن الدواوين، وجعل عليها ابن يربوع الفزاري من أهل حمص، وذلك في سنة سبع وثمانين هجرية»[١]. فالنص صريح هنا أن اللغة القبطية كانت لغة الدواوين، وهذا يخالف ما ذكرناه سابقًا من أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية؛ ثم إن المؤرخين قد اتفقوا على أن لغة الدواوين في الشام كانت اليونانية، ومصر والشام كانتا من أملاك الإمبراطورية البيزنطية؛ فكيف تكون اللغة الرسمية في الشام تختلف عن اللغة الرسمية في مصر؟ وقد حفظت لنا أوراق من البردى يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن عبد الملك كتبت باليونانية والعربية، وهي وثائق صدرت من الوالي نفسه، ونجد بعض الوثائق المحفوظة بدار الكتب المصرية قد كتبت باللغة اليونانية فقط، ولا نجد بينها وثائق كتبت باللغة العربية والقبطية أو القبطية فقط[٢]؛ مما يدل على أن لغة الدواوين في مصر والشام كانت اليونانية وليست القبطية كما وهم مؤرخو العرب، وقد يكون هذا الوهم نشأ من أن بعض موظفي الدواوين كان من الأقباط، فظنَّ المؤرخون أن اللغة القبطية كانت اللغة الرسمية في البلاد.

ومهما يكن من شيءٍ فإن اللغة القبطية كانت لغة تؤلف بها الكتب؛ فالمؤرخ يوحنا النيقوسي كتب تاريخه -في أيام ولاية عبد العزيز بن مروان- بعضه باللغة اليونانية وبعضه الآخر بالقبطية[٣].

بعد الفتح العربي كانت اللغة العربية في أول الأمر في حيز محدود في مصر

(١) الولاة للكندي: ص٥٨.

(٢) أوراق البردي للأستاذ جروهمان، طبع دار الكتب المصرية في مواضع متفرقة.

(٣) تاريخ الأمة القبطية: ج٢، ص١٦٧.

يتكلمها العرب ومن جاورهم من المصريين الذين اضطروا بحكم الجوار إلى أن يختلطوا بالفاتحين وأن يعرفوا لغتهم، ثم أدخلت بعض الاصطلاحات العربية في الدواوين، فاضطر المصريون إلى أن يعرفوا لغة العرب تقربًا إليهم وتحقيقًا لمصالحهم؛ فنرى القسيس بنيامين قد أجاد اللغة العربية حتى أنه شرح الإنجيل بالعربية للأصبغ بن عبد العزيز بن مروان[١]، كما كان لانتشار الدين الإسلامي في مصر أثر كبير في نشر اللغة العربية بين المصريين؛ إذ اضطر من أسلم منهم إلى أن يتعلم اللغة العربية حتى يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى أن يفهم دروس الفقه.

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم في الربيع ويتصلون بالمصريين في الريف، فكان ذلك من أسباب انتشار اللغة العربية بين الشعب، حتى جاء الوقت الذي ترك فيه المصريون اللغة القبطية وأهملوا شأنها حتى في مسائلهم الشخصية، واتبعوا المسلمين في كل شيء. وها هي أوراق البردي التي حفظت في دار الكتب المصرية وغيرها من المكتبات والمتاحف تؤيد ذلك؛ فمثلًا نجد في القطعة رقم ١١ التي ذكرها الأستاذ جروهمان في كتابه عقد بيع بين مصرية ومسلم كتب باللغة العربية، ووجد فيه ثلاثة أسطر باللغة القبطية، هي شهادة بعض المصريين على هذا العقد، كما نلاحظ أن الكاتب استعمل بعض اصطلاحات مصرية خالصة؛ فالمصريون هم الذين يحدون الجهات

(١) Quatremere: p. ٢٣.

بالبحري والقبلي[١]، مما يدل على تأثر اللغة العربية بالاصطلاحات المصرية. ثم مما يدلنا على ضعف اللغة القبطية وسيرها في طريق الاضمحلال، أن القديس شنوده كتب مؤلفاته باللغة القبطية واللهجة الصعيدية -ثم اضطر إلى أن يكتبها مرة أخرى باللغة العربية حتى يتسنى للأقباط أن يقرأوها، وبعد أن كانت مراسيم الكنيسة تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية صارت تقرأ بالقبطية وتشرح بالعربية، وفي القرن العاشر الميلادي كان المصري المثقف يفخر بأنه يعرف اللغة القبطية[٢]، وحدث أنه في القرنين التاسع والعاشر اليلاديين ظهر نشاط غريب بين الأقباط؛ إذ أرادوا أن يعتزوا بقوميتهم ويحافظوا على لغتهم، فجمعوا الكتب القبطية في دير القديس مكاريوس «St.Macarius» ولكن حركتهم هذه فشلت في القرن الحادي عشر؛ لأن اللغة القبطية كانت تتقهقر أمام اللغة العربية، وازداد إلحاح الناس على ترجمة الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية[٣]. وبعد القرن العاشر الميلادي كان رجال الدين المسيحي يقرأون صلواتهم باللغة القبطية؛ بينما كانت كتبهم الدينية باللغة العربية، وفي زيارة المسعودي لمصر سأل كثيرًا من المصريين عن معنى كلمة فرعون في لغتهم فلم يظفر بجواب. ومع ذلك كله فإنا نجد اللغة القبطية كانت معروفة في مصر إلى عهد قريب؛ فالمقريزي ذكر في خططه «ودرنكة أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية؛ فيتحدث صغيرهم وكبيرهم بها ويفسرونها

(١) يقول المقريزي في خططه: ج١، ص٢٣: إلا أن أهل مصر يستعملون في تحديدهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلية فيقولون الحد القبلي ينتهي إلى كذا، ولا يقولون الجنوبي، وكذلك يقولون الحد البحري ويريدون بالحد البحري الحد الشمالي.

(٢) Quatremere: p. ٣٩.

(٣) Hugh: the Monasteries of Wadin Natrun (New yourk) V.i.p ٢٦.

بالعربية»[١]. وقال في موضع آخر: «ودير مواس خارج أسيوط من قبليها بني على اسم توما الرسول، والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطية البحيرية، ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية»[٢].

ونستطيع أن نقول: إن كثيرًا من العرب عرفوا اللغة القبطية وتخاطبوا بها؛ فقد قيل: إن البطريق يوسف عندما حوكم سنة ٨٥٠م خاطب رعيته باللغة القبطية بحضور عدد كبير من العرب، وفهم العرب كل ما قاله وحدثوا به القاضي[٣]. وذكر ابن حجر في أخبار القاضي خير بن نعيم: «وكان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها، وكذلك شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم»[٤]. وقال الكندي في خبر خروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥هـ: «إن ابن حديج وقف على الباب الذي ناحية بيت المال فكلم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد كلمة قبطية»[٥]. فهذا كله يدلنا على أنَّ بعض العرب بمصر تعلموا اللغة القبطية وتخاطبوا بها.

والآن إذا فحصنا اللغة التي يتحدث بها المصريون، فإنا نجد بها كثيرًا من الألفاظ القبطية؛ فلفظ «كان ماني» و«شونة» و«أرض شراقي» و«أردب» وغيرها، هذه كلها ليست عربية؛ بل هي مصرية، وكان القدماء يستعملون

(١) المقريزي: ج٤، ص٤٣٦.

(٢) المقريزي: ج٤، ص٤١٧.

(٣) كاترمير ص٣٤، وبتلر في كتابه «تاريخ الكنيسة القبطية»، ص٢٥١.

(٤) رفع الإصر عن قضاة مصر، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

(٥) الولاة والقضاة: ص١١٣.

كلمة «القباطي» وهو نوع من النسيج كان يرسل من مصر إلى بلاد العرب، واستعمل الكندي كلمة مواحيز بمعنى أماكن فقال: «كانت مواحيز مصر يعمرها أهل الديوان»[١]، واستعمل ابن الداية لفظ «تليس» بمعنى الحقيبة الكبيرة[٢]. ولا يزال المصريون يستعملون هذه الكلمة بنفس المعنى القديم. واستعمل المؤرخون العرب كلمة برابي، ويسمي المصريون إلى الآن الرياح الجنوبية بريح المريس و«إم ريس» بالقبطية معناها جهة الجنوب.

ونجد اختلافًا في اللهجات المصرية؛ فلهجة الصعيد تختلف عن لهجة أهل القاهرة، ولهجة أهل مديرية الشرقية غير لهجة أهل رشيد أو أهل الإسكندرية، وقد علل الدكتور جورجي بك صبحي ذلك بأن اختلاف اللهجات الآن في جهات مصر المختلفة كان يتأثر هذه الجهات باللهجة المصرية القديمة[٣]. وقد يكون هذا السبب صحيحًا؛ ولكني أستطيع أن أضيف إلى ذلك أسبابًا أخرى؛ منها اختلاف اللهجات العربية التي أتى بها العرب، ثم تأثر المصريين في عصورهم المختلفة بالأمم الأوربية الأمر الذي جعل لهجات البلاد تختلف اختلافًا واضحًا.

---

(١) شرحه: ص٤١٨.

(٢) المكافأة لابن الداية: ص٨٢.

(٣) محاضرة الدكتور جورجي بك صبحي عن الثقافة القبطية بقاعة يورت في ديسمبر سنة ١٩٣٣.